نعاقب أو لا نعاقب

3

نعاقب أو لا نعاقب

لم تبدأ جلستنا الثالثة بعد. لم يزل الحضور يتحلقون في مجموعات صغيرة، منخرطين في حوارات جانبية معمقة. تناهى إلى سمعي بعض مما كانوا يتحدثون به:

"سأعاقبها، بعد الذي فعلته، لبقية الشهر!".

"يجب أن أتوقف عن لعب دور الشخص اللطيف. تساهلتُ كثيراً مع الولد، ولا بد أن يعاقب هذه المرة".

فكرتُ قائلة لنفسي: "حسناً، لم نتحدث عن المعاقبة بعد، ولكن بعضهم يتحرقون لذلك على ما يبدو".

تحدثتُ قائلة: "لورا، مايكل، هل لكما أن تطلعانا على ما فعله ولداكما، وجعلكما غاضبين لهذه الدرجة؟".

ردت لورا بانفعال قائلة: "لم أكن غاضبة فحسب، بل وقلقة إلى حد المرض! كان من المفترض بكيلي أن تصل حفلة عيد مولد صديقتها جيل عند السادسة مساء. تلقيت مكالمة هاتفية من أم

جيل، تسألني فيها قائلة: "أين كيلي؟ تعلم أنه ينبغي علينا الوجود في صالة البولينغ عند السابعة والنصف. لقد كتب ذلك في بطاقة الدعوة. نقف جميعنا مستعدين للمغادرة في هذه اللحظة، لا يعوق تحركنا شيء، سوى انتظارها".

"أخذ قلبي يخفق بشدة. قلت لها حائرة، خائفة، مستغربة: "لا أفهم هذا الأمر. لقد غادرت باكراً، ومن المفترض أن تكون قد وصلت إليكم منذ مدة طويلة".

عقبت والدة جيل قائلة: "حسناً، لا داعي للقلق. لا بد أن تصل بين لحظة وأخرى"، ثم أغلقت السماعة.

"أجبرت نفسي على الانتظار لخمس عشرة دقيقة قبل الاتصال بمنزل صديقتها جيل، أملاً في سماع أخبار جديدة. ردت علي الأخيرة قائلة: "لا، لم تصل كيلي بعد، بالرغم من تذكيري إياها اليوم، في المدرسة، بضرورة عدم التأخر".

"شعرت برعب شديد في تلك اللحظة، وأخذت الأفكار الرهيبة تتوارد إلى ذهني. رن جرس الهاتف بعد مرور عشرين دقيقة "مريعة". أجبت الاتصال، فإذا بأم جيل تقول لي: "أود طمأنتك بأن كيلي قد وصلت أخيراً. يعود السبب في تأخرها إلى مصادفة أحد زملاء دراستها في الطريق، والانشغال بالتحدث معه، ونسيان الموعد برمته جراء ذلك. آمل ألا نفقد حجزنا في صالة البولينغ بالنتيجة".

"اعتذرت، نيابة عن ابنتي، وشكرت للسيدة اتصالها. انفجرت في وجه الفتاة، ما إن عادت إلى المنزل، قائلة: "هل تدركين ما سببته لي؟ كيف أمكن لك التصرف بكل هذا الاستخفاف، والطيش، وانعدام المسؤولية؟!. لا تفكرين سوى بنفسك. لقد كان عيد مولد صديقتك، ولكنك لم تشعري بأي التزام تجاهها. تنحصر كل اهتماماتك في التحدث إلى الفتيان، واللهو. حسناً، انتهت مرحلة اللهو أيتها الفتاة، ستعاقبين لبقية الشهر!. إياك والظن بأنني سأعدل عن قراري، لأنني لن أفعل مطلقاً".

"حسناً هذا ما أخبرتها به في حينه، ولكنني لا أدري إن كنت أتفق معه الآن... ربما قسوت عليها كثيراً".

عقب مايكل قائلاً: "يبدو لي أنها نالت ما تستحق تماماً، كما ولدي".

التفت جميع الحاضرين إليه، وسأله أحدهم قائلاً: "ما الذي حدث؟ ما الذي فعله؟".

أجاب مايكل قائلاً: "بل ما الذي لم يفعله، إنها فروضه المدرسية. تنحصر جميع اهتمامات جيف في كرة القدم، منذ التحق بفريقها. يصل المنزل، بعد عودته من التدريب، متأخراً كل يوم، ويمكث في غرفته طويلاً بعد تناول طعام العشاء، ويجيبني، حين أسأله عما إذا كان يواظب على إنجاز فروضه المدرسية، قائلاً: "لا تقلق يا أبتي، أقوم بذلك على أكمل وجه".

"حسناً، مررت بغرفة جيف، بعد مغادرته المنزل يوم الأحد، ولمحت رسالة على الأرض، قرب باب الغرفة. التقطتها، وقد كان الظرف الحاوي لها مفتوحاً. اكتشفت أنها مرسلة إلي، وأن تاريخها يعود إلى أسبوع مضى. هل تعلمون ما كان فحواها؟ إنذار من أستاذ الرياضيات. لم ينجز جيف أياً من فروضه طيلة الأسبوعين الماضيين. ثارت ثائرتي، بكل معنى الكلمة، حين علمت بالأمر".

"بدأت هجومي عليه، ما إن وطئت قدمه أرض المنزل. رفعت الرسالة في وجهه، وقلت له بانفعال: "كذبت علي فيما يتعلق بإنجاز فروضك المدرسية، وقرأت رسالة موجهة إلي بالأساس، ناهيك عن إخفاء فحواها عني. حسناً، لدي أخبار لك، أيها السيد!، لن تلعب كرة القدم لبقية هذا الفصل. سأتصل بالمدرب غداً".

عقب قائلاً: "أبي، لا يمكنك فعل هذا بي!".

قلت له: "لم أفعل أي شيء بك يا جيف، بل أنت من فعل. انتهى النقاش".

سألت لورا مايكل، قائلة: "هل انتهى فعلاً؟".

رد مايكل قائلاً: "لا يظن جيف ذلك. لقد عمل طيلة الأسبوع على إقناعي بتغيير رأيي، وكذا فعلت زوجي". أردف مايكل، بعد أن نظر إلى زوجه نظرة ذات مغزى، قائلاً: "تعتقدُ أنني قسوت عليه للغاية، أليس كذلك يا عزيزتي؟".

سألتُ مايكل قائلة: "ما رأيك؟".

أجاب قائلاً: "أعتقد أن جيف يدرك الآن مدى جديتي".

عقب توني، تأييداً لموقف مايكل، قائلاً: "نعم، تشكل المعاقبة، في بعض الأحيان، السبيل الوحيد لدفع الأولاد إلى التحسن، والتصرف بمسؤولية أكبر".

سألتُ المجموعة قائلة: "هل تدفع المعاقبة الأولاد، بالفعل، إلى التصرف بمسؤولية أكبر؟. عودوا بذاكرتكم إلى الوراء، وفكروا، لدقيقة من الوقت، فيما إذا كان هذا الأمر ينطبق عليكم حين كنتم صغاراً".

كانت كارين أول المعقبين، قائلة: "جعلتني المعاقبة شخصاً أقل مسؤولية. ضبطتني أمي وأنا أدخن، حين كنت في الثالثة عشرة من العمر، وحرمتني من استخدام الهاتف، فدخنت بشراهة أكبر. كنت أفعل ذلك في باحة المنزل الخلفية، حيث لا يمكن لأحد رؤيتي، ثم أدخل المنزل، وأنظف أسناني، وأحيي أمي، مع ابتسامة عريضة على وجهي. فعلت ذلك لسنوات، دون أن تكشف أمري، وها أنا ذا، بكل أسف، أدخن حتى الآن".

تحدث توني بدوره قائلاً: "قد لا أتفق مع ما ذكر للتو، فللمعاقبة ضرورتها في بعض الأحيان. انظروا إليَّ على سبيل المثال: كنت ولداً سيئا اعتادت "شلته" إثارة الكثير من المشكلات. كنا جامحين للغاية، وقد انتهى المطاف بأحدنا في السجن. أقسم أن لولا معاقبة والدي لي على بعض ما قمت به، لما عرفت أين سأكون اليوم".

عقبت جوان قائلة: "وما كنت لأعلم أيضاً أين سأكون اليوم، لو لم أخضع للمعالجة التي ساعدتني في تجاوز الآثار الناتجة عما تعرضت له من عقاب".

بدا توني مندهشاً مما سمعه. خاطبها قائلاً: "لم أعِ ما قلته".

استرسلت جوان في الحديث، توضيحاً لتعقيبها السابق، قائلة: "اعتقد كل من والديَّ أن عدم معاقبة الطفل، في كل مرة يخطئ فيها، تعني انعدام المسؤولية لديهما. اعتادا إخباري، كلما عاقباني، أنهما يقومان بذلك لصالحي، وهو ما ينافي الحقيقة تماماً. أصبحت، بالنتيجة، فتاة عصبية، ومكتئبة، تفتقد الثقة بنفسها. لم يكن هنالك من أتحدث إليه في المنزل. لقد كنت وحيدة للغاية".

وجدتني أتنهد جراء ما سمعت. لم يمثل ما ذكره المتحدثون للتو سوى نتائج طبيعية لمعاقبة المراهقين. نعم، تثبط المعاقبة همة بعض الأطفال إلى حد كبير، وتشعرهم بكثير من العجز لدرجة يفقدون معها الإيمان بأنفسهم.

بينما يقر بعض الأطفال، كتوني، بأنهم "سيئون" للغاية، ويحتاجون المعاقبة كي يصبحوا "جيدين"، في حين يستاء الآخرون، ككارين، ويتملكهم الغضب بحيث يواصلون اتباع سلوكهم، مع استنباط الوسائل الكفيلة بإخفائه. لا يصبح أولئك، في نهاية المطاف، أكثر صراحة، بل حذراً، وتكتماً، ودهاء.

تبقى المعاقبة، مع ذلك، وسيلة مقبولة إلى حد كبير، وأسلوباً مفضلاً لدفع المراهقين إلى الانضباط، ناهيك عن أن العديد من الوالدين ينظرون إلى المعاقبة والانضباط على أنهما وجهان لعملة واحدة. كيف لي، بالتالي، أن أطلع الحضور على قناعتي المتمثلة بأن لا مكان للمعاقبة ضمن العلاقة السليمة الحانية بين الوالدين ومراهقيهم؟.

خاطبت الحاضرين، بصوت مرتفع، قائلة: "لو أجبرنا، بشكل أو بآخر، على استبعاد المعاقبة، كأداة لدفع أولادنا إلى الانضباط، فهل سنصبح عاجزين تماماً عندئذ؟ وهل يعني ذلك سيطرة مراهقينا على الوضع؟ وتحولهم إلى أولاد جامحين، مدللين، منفلتين، منهمكين في ذواتهم، مجردين من أي إحساس بالصواب أو الخطأ، يسيئون معاملة والديهم من آن لآخر، ويفرضون سلوكياتهم عليهم؟ أو أن هناك طرقاً أخرى، عدا المعاقبة، كفيلة بتحفيز مراهقينا على التصرف بمسؤولية؟".

كتبت التالي على السبورة:

بدائل عن المعاقبة

- أوضح مشاعرك.
- أوضح توقعاتك.
- أوضح كيفية التعويض.
- وفر الخيارات.
- اتخذ الإجراءات.

سألتُ لورا ومايكل عما إذا كانا مستعدين لتطبيق هذه المهارات الجديدة على موقفيهما الحاليين مع ولديهما. قبل كلاهما التحدي المتمثل بهذه المهمة. سترون، في الرسوم التالية، نتائج ما يمكن أن نفعله لإنجاح السيناريوهات الكفيلة بتحقيق غايات البدائل السابقة. سنعرض أولاً الكيفية التي يمكن أن تتعامل لورا من خلالها مع ابنتها كيلي، التي سبب استخفافها بالوقت الكثير من القلق لأمها.

بدائل عن المعاقبة
أوضح مشاعرك

أوضح توقعاتك

أوضح كيفية التعويض

وفر الخيارات

ولكن لنفرض أن كيلي ارتكبت الخطأ ذاته ثانية، أو أن والدتها تلقت مكالمة الاستفسار عن ابنتها مجدداً. يمكن في تلك الحالة، وحين ترغب كيلي في زيارة أي من أصدقائها ثانية، أن تقوم أمها بما يلي:

اتخذ الإجراءات

بدا التأثر واضحاً على الحاضرين. توالت تعقيبات العديد منهم كالتالي:

"خشيتُ في بادئ الأمر، حين تحدثتِ عن بدائل المعاقبة، أن تشمل الأخيرة في نظرك بعض الطرق "اللطيفة" التي يقوم الوالدون خلالها بتوبيخ المراهق قليلاً، وإلقاء المسؤولية عن كاهله دون اتخاذ أي إجراءات إضافية، ولكن ما شاهدته للتو فاعل ومؤثر في الحقيقة، حيث تخبرُ المراهق بما تشعر، وتتوقع، وتوفر له الطرق الكفيلة بتحمل مسؤولية أفعاله".

"دون أن تتصرف بلؤم، أو قسوة، أو تشعر المراهق بأنه إنسان سيئ، بل بحزم، وقوة يشوبهما الاحترام له، ولذاتك على حد سواء".

"نعم، لا تكون عندئذ عدو المراهق، بل نصيره الذي يعلمه تحمل المسؤولية".

"ويظهر له كيفية القيام بذلك أيضاً".

"لا توحي له كذلك، عبر ما شاهدناه للتو، بأنك تملك من القوة ما يتيح لك التحكم به، ومنعه من كذا، أو حرمانه من كذا، بل تضع القوة بين يديه، والكرة في ملعبه، حيث يعود الأمر له كلية في معرفة ما ينبغي عليه فعله طمأنة لوالديه: كالاتصال بهما حين يتأخر عن بلوغ وجهته، وحين يصلها، وحين يغادر إلى المنزل".

تأوهت لورا، بعد أن وضعت يدها على رأسها، قائلة: "لا أدري ما أقول. أشعر بثقة كبيرة حين أمارس هذه التمارين في حضرتكم، ولكن ما الذي سيحدث بالفعل عندما أواجه المشكلة الحقيقية بمفردي؟ تفرض هذه الطريقة الكثير من المتطلبات على الوالدين، وتعني تبنيهم مواقف مختلفة كلية. تتمثل الحقيقة في أن معاقبة المراهقين أسهل بكثير".

وافقتها الرأي قائلة: "أسهل لبرهة، ولكنها ستعود بما يناقض أهدافك الحقيقية إن تمثلت في مساعدة ابنتك على تحمل المسؤولية، والمحافظة، في الوقت ذاته، على علاقة طيبة معها".

"توجد، مع ذلك، بعض الصحة فيما ذكرتِ. تتطلب هذه الطريقة بالفعل تغييراً في طريقة تفكيرنا. لنر الآن الكيفية التي يمكن أن تطبق بها هذه المهارات على مشكلة مايكل مع ابنه".

بدائل عن المعاقبة

أوضح مشاعرك

أوضح توقعاتك

أوضح كيفية التعويض

وفر الخيارات

ماذا لو أنجز جيف فروضه المدرسية، وعوض ما فاته منها، ولكن أهملها مجدداً فيما بعد؟ يمكن لوالده، في تلك الحالة، أن يقوم بما يلي:

اتخذ الإجراءات

هز توني رأسه قائلاً: "ربما فاتني شيء ما، ولكنني لا أرى الفرق بين "اتخاذ الإجراءات" ومعاقبة الولد، حيث يحرمه والده، في كلتا الحالتين، من لعب كرة القدم".

عقبت لورا قائلة: "لحظة، أعتقد أنني بدأت أخيراً في استيعاب الموضوع. لا توفرُ أي خيار للمراهق، حين تعاقبه، وتسدُ الأبواب في وجهه؛ لأن الأمر حينها يكون في حكم المنتهي. أما حين تتخذ الإجراءات، فقد تروق للمراهق أو لا تروق، ولكن الخيار يبقى متاحاً بالنسبة له، ويُمنحُ الفرصة لمواجهة نتائج أفعاله، والعمل على إصلاح الأوضاع التي تسببَ بها، وتحويل "الخطأ" الذي ارتكبه إلى أمر "صائب".

عقبتُ قائلة: "أحب طريقة عرضك للفكرة. لا يتمثل هدفنا من اتخاذ الإجراءات في وضع نهاية للتصرفات اللامقبولة فحسب، بل منح أولادنا فرصة التعلم من أخطائهم، وتصحيحها أيضاً. قد توقف المعاقبة الطفل عن اتباع السلوك السيئ، ولكنها تمنعه من تصحيح أخطائه ذاتياً".

نظرتُ إلى توني. لم يزل الشك يعتري ملامحه. تابعت حديثي، وكلي تصميم على إيصال الفكرة إليه، قائلة: "لا أحسب أن المراهق، الذي عوقب للتو لمدة أسبوع، سيتمدد في سريره، ويفكر قائلاً لنفسه: "آه، يالسعدي. منحني الله والدين عظيمين، وقد لقناني للتو درساً قيماً. لن أكرر فعلتي ثانية!". سيفكر ذلك المراهق، على

الأرجح، بالتالي: "يا لهما من "لئيمين"، أو "ظالمين"، أو "أكرههما"، أو "سأريهما"، أو "سأقوم بما فعلت ثانية، مع الحرص على عدم انكشاف أمري".

أخذت المجموعة تنصت باهتمام في تلك اللحظة. حاولت تلخيص الفكرة قائلة: "تتمثل مشكلة المعاقبة، كما أراها، في أنها تسهل تجاهل الخطأ بالنسبة للمراهق، والتركيز عوضاً عن ذلك على فكرة لا عقلانية والديه، علاوة على أنها تحرمه، وهو الأسوأ في نظري، من اتباع الخطوات التي يحتاج القيام بها كي يصبح أكثر نضجاً، ومسؤولية".

"ما الذي نأمل حدوثه حين يخطئ الطفل؟ أن ينظر إلى ما فعله باعتباره أمراً خاطئاً، ويفهم السبب الذي يجعله كذلك، ويبدي الندم على ارتكابه، ويحرص على عدم تكراره، ويفكر جديا في كيفية إصلاحه. بكلمات أخرى: يحتاج مراهقونا، كي يحدث التغيير الحقيقي المطلوب، إلى القيام "بفروضهم" العاطفية، ولا تسهم المعاقبة إلا في التداخل مع تلك العملية المهمة".

ران الصمت على الحاضرين. ما الذي كانوا يفكرون به يا ترى؟ هل ما زالت الشكوك تراودهم؟ هل كنت واضحة بما فيه الكفاية؟ هل يمكن أن يقبلوا ما سمعوه للتو؟. نظرت إلى ساعتي، لأجد أن الوقت قد أصبح متأخراً. خاطبتهم قائلة: "قمنا بكثير من العمل الشاق الليلة. أراكم الأسبوع المقبل جميعاً".

رفع توني يده قائلاً: "لدي سؤال أخير".

أومأت برأسي قائلة: "تفضل".

تحدث متسائلاً: "ماذا لو طبقنا كل المهارات التي تعلمناها اليوم، ولم يحسن أولادنا من سلوكهم؟ لنفرض أنهم يجهلون كيفية القيام بما دعوته "تصحيح الأخطاء ذاتياً"، فما الذي ينبغي فعله عندئذ؟".

أجبته قائلة: "يؤشر ذلك إلى أن المشكلة بحاجة إلى المزيد من العمل، وأنها أكثر تعقيداً مما تبدو عليه بالأصل، وأنك بحاجة إلى إعطائها مزيداً من الوقت، وجمع المزيد من المعلومات عنها".

سألني، والحيرة بادية عليه، قائلاً: "كيف؟".

أجبته قائلة: "عبر حل المشكلة".

عقب متسائلاً: "حل المشكلة؟".

عقبت قائلة: "هي عملية سنتحدث عنها الأسبوع المقبل. سنعمل على إيجاد الطرق الكفيلة بتوحيد طاقات الوالدين ومراهقيهم، واكتشاف الإمكانات المتاحة أمامهم، وحل المشكلة معاً فيما بينهم".

ابتسم توني، للمرة الأولى في تلك الأمسية، قائلاً: "يبدو ذلك جيداً بالنسبة لي. لن أفوت ذلك اللقاء أبداً".

الروايات

روى عدد من الحاضرين، في الأسبوع التالي لجلستنا المنعقدة حول بدائل المعاقبة، رووا الكيفية التي طبقوا بها مهاراتهم الجديدة على أرض الواقع.

روى توني، بادئ ذي بدء، القصة التالية عن ولده بول، ذي الأربعة عشر ربيعاً.

توني

نزل بول وصديقه مات الممر المؤدي إلى المنزل جريا على الأقدام، تكاد تقطع بهما الأنفاس، وإن ارتسمت على وجهيهما ابتسامة عريضة. خاطبتهما قائلاً: "ما الأمر أيها الفتيان؟". أجاباني قائلين: "لا شيء"، ثم نظرا إلى بعضهما، وضحكا. همس مات فيما بعد في أذن بول، ثم غادر.

سألت بول قائلاً: "ما الذي أخبرك ألا تخبرني به؟" لم يجب عن سؤالي، فقلت له: "أخبرني الحقيقة فحسب. لن أعاقبك".

تحدث الولد في نهاية المطاف عما حدث. تتلخص القصة في توجههما إلى النادي البلدي مساء بغرض السباحة، ليفاجئا بأنه كان مغلقاً. حاولا الدخول عبر جميع أبواب النادي، ليجدا أحدها مفتوحاً. دخل الولدان النادي، وتوجها إلى حوض السباحة، حيث أنارا الأضواء كافة، وجريا حوله، يلهوان ويعبثان بكل ما يصادفهما،

ويقرعان على المقاعد المحيطة به كافة، ويرميان وسائدها في كل مكان، بما في ذلك حوض السباحة نفسه، دون أن يمثل الأمر لهما أكثر من مزحة.

كان الولد محظوظاً بالوعد الذي قطعته بعدم معاقبته، حيث - وصدقوني حين أقول ذلك - وددت إلقاء الرسوم في وجهه، حين سمعت القصة، وقطع المصروف عنه، وأخذ جهاز الكمبيوتر خاصته، ومعاقبته بأي شكل يمسح تلك الابتسامة الغبية عن وجهه.

خاطبته قائلاً: "أنصت إلي يا بول. الأمر جدي. يسمى ما قمت به تخريباً للممتلكات العامة".

احمر وجه الولد، وصرخ قائلاً: "هل رأيت؟! عرفت أنه لم يكن يجدر بي إخبارك. عرفت أنك ستحيله إلى خطب جلل. لم نسرق شيئاً، أو نتبول في الحوض، كي تتهمني بالتخريب!".

عقبت قائلاً: "حسناً، هنيئاً لك بذلك، ولكن الخطب جلل في نظري. بذل الكثير من الناس الغالي والنفيس كي يجمعوا المال اللازم لبناء هذا الحوض من أجل عوائلهم. إنهم يفتخرون به، ويعملون بجد على صيانته، والمحافظة عليه، ناهيك عن أنه المكان الذي تعلمتَ فيه السباحة".

تساءل بول قائلاً: "ما الذي تحاول فعله؟ إشعاري بالذنب؟".

أجبته قائلاً: "بالتأكيد؛ لأن ما فعلته كان خاطئاً، ويجب أن تصححه".

عقب متسائلاً: "ما الذي تريدني أن أفعله؟".

أجبته قائلاً: "أريد أن تعود إلى حوض السباحة الآن، وتعيد كل شيء إلى الوضعية التي وجدته بها".

تساءل الولد بدهشة، قائلاً: "الآن؟!. يا إلهي، لقد وصلت المنزل لتوي!".

عقبت قائلاً: "نعم الآن، سأوصلك بنفسي".

عقب قائلاً: "ماذا عن مات؟ لقد كانت فكرته. يجب أن يرافقنا أيضاً!. سأتصل به حالاً".

حسناً، اتصل به بالفعل، حيث قال مات في البداية: "مستحيل"، متذرعاً بأن أمه يمكن أن تقتله إن هي علمت بالأمر. أخذتُ السماعة، وخاطبته قائلا: "مات، قام كلاكما بتلك الفعلة، ويجب أن تصلحا ما أفسدتماه معاً. سأمر لاصطحابك بعد عشر دقائق".

أوصلت الولدين إلى النادي ثانية. كان الباب لا يزال مفتوحاً، لحسن الحظ، ولكن المكان خرب بكل ما للكلمة من معنى. خاطبتهما قائلاً: "تعلمان ما ينبغي عليكما القيام به. سأنتظر في السيارة".

خرجا بعد حوالي عشرين دقيقة، قائلين: "أنهينا كل شيء. هل تود الرؤية؟". أجبتهما قائلاً: "نعم، أود ذلك"، ثم دخلت للتحقق.

حسناً، تم ترتيب المكان برمته، وتصفيف المقاعد كما كانت، وإعادة الوسائد إلى مكانها الأصلي. خاطبتهما قائلاً: "جيد. يبدو كل شيء طبيعيا. أطفئا الأضواء كي نغادر".

سكن الولدان في طريق العودة. لا أعلم بشأن مات، ولكنني أعتقد أن بول قد أدرك خطأه في النهاية، وشعر بالسعادة لحصوله على فرصة (التعويض عما فعله)، كما أسميتِها".

جوان

كنت أعد طعام العشاء حين قدمت رايتشل إلى المنزل. لم يتطلب الأمر أكثر من نظرة إلى عينيها المحتقنتين بالدماء، وابتسامتها البلهاء، لأعرف أنها كانت تتعاطى المخدرات. لم أستبعد أن تكون الماريجوانا، وأملت ألا يكون الأمر أسوأ من ذلك.

خاطبتها قائلة: "رايتشل، إنك خدرة".

عقبت قائلة: "تسجين الأوهام حولي دائماً"، ثم دلفت إلى غرفتها.

تسمرت في مكاني عاجزة عن تصديق ما شاهدته للتو. إنها الفتاة ذاتها التي ائتمنتي على سرها الشهر الماضي، قائلة: "أمي، أقسمي ألا تخبري أحداً بما سأقوله لك. بدأت لويس في تدخين الماريجوانا. هل تصدقين ذلك؟ أو ليس ذلك فظيعا؟"

أذكر عندئذ حين فكرت قائلة لنفسي: "حمداً لله، ليست ابنتي من يفعل ذلك"، بينما يحدث الأمر ذاته معها الآن!. لم أعلم ما ينبغي علي فعله. أيجدر بي معاقبتها؟ منعها من الذهاب إلى أي مكان بعد المدرسة؟ (بالتأكيد ليس إلى منزل لويس!) الإصرار على قدومها إلى المنزل مباشرة من الآن فصاعدا؟ لا، سيؤدي ذلك إلى الجدال والبكاء، ناهيك عن لا واقعيته.

لم أستطع التظاهر، مع ذلك، بأن شيئاً لم يكن، وعلمت ألا فائدة من التحدث إليها حتى تزول آثار ما تعاطته أو دخنته، كائناً ما كان. احتجت كذلك مزيداً من الوقت للتفكير. هل يجدر بي إخبارها عن "تجربتي" الخاصة حين كنت مراهقة؟ وما المقدار الذي يجدر بي إطلاعها عليه إن فعلت؟. هل ستفيدها معرفة ذلك؟، أو ستتخذ منه ذريعة لتبرير ما فعلت ("قمتِ بالأمر ذاته، وها أنت الآن على ما يرام")؟ تخيلت، بكل الأحوال، عشرات الحوارات معها خلال بضع الساعات التالية. تحدثنا أخيراً، بعد تناول طعام العشاء، حينما تراءى لي أنها عادت إلى طبيعتها.

هاكم ما دار بيني وبينها:

خاطبتها قائلة: "رايتشل، لا أطلب أي اعتراف، ولكنني رأيت ما رأيت، وعلمت ما علمت".

عقبتْ قائلة: "آه أمي، إنك "دراميـة" للغاية! لم يتعد الأمر القليل من الماريجوانا. لا تقولي لي إنك لم تجربيها قط حين كنت في سني".

عقبتُ قائلة: "كنت في الواقع أكبر كثيراً. في السادسة عشرة، لا الثالثة عشرة".

عقبتْ قائلة: "أترين... وها أنت على ما يرام".

عقبتُ قائلة: "لم أكن على ما يرام حينها. توقف أصدقائي القدامى، أو ما يمكن دعوتهم "بالأولاد الصالحين"، عن مصادقتي،

وهبطت درجاتي الدراسية كثيراً. لم أدر حقيقة ما كنت أورط نفسي فيه حين بدأت تعاطي الماريجوانا، ظناً مني أنها غير مؤذية، أو لا تفوق السيجارة العادية في ضررها على أقل تقدير".

سألتني قائلة: "ما الذي دفعك إلى التوقف إذاً؟".

أجبتها قائلة: "باري غيفورد، زميلي في الصف. لقد حطم سيارته، نتيجة اصطدامه بشجرة، عقب مغادرته حفلة تعاطي جميع مدعويها المخدرات. انتهى الأمر بباري، على أية حال، في المستشفى بعد أن تهتك طحاله. تعين على جميعنا، بعد بضعة أيام، الانخراط في برنامج التوعية بأضرار المخدرات، مع كل ما يتضمنه من كتيبات قيمة. قررت، فيما بعد، أن الأمر لا يستحق كل ما يمكن أن يسببه من أضرار ومخاطر".

عقبتْ قائلة: "آه، لقد كانوا يحاولون إخافتكم على الأرجح".

عقبتُ قائلة: "هذا ما ظننته إلى أن قرأت كتيبات التوعية بالكامل. كنت أعرف بعضاً مما جاء فيها، ولكني جهلت الكثير من الحقائق المهمة التي احتوتها".

سألتني قائلة: "مثل ماذا؟".

أجبتها قائلة: "مثل أنها تبقى في جسدك لأيام بعد تعاطيها، وتضر بذاكرتك واتزانك، بل وحتى دورتك الشهرية، وأنها أكثر سوءاً من السجائر. لم أكن أعلم حقيقة أن العناصر الكيميائية

المكونة للماريجوانا يمكن أن تسبب السرطان بنسبة أكبر من التبغ. لقد فاجأني ذلك كثيراً".

بدا القلق واضحاً على ملامح رايتشل في تلك اللحظة. أحطتها بذراعي، قائلة: "اسمعي بنيتي: لو كان بمقدوري اللحاق بك، ليل نهار، كي أمنع أياً كان من إعطائك، أو بيعك ما يمكن أن يضرك، لفعلت، ولكن ذلك سيعد ضرباً من الجنون. أتوقع، بالتالي، أن تكوني ذكية بالقدر الكافي لحماية نفسك من كل الأمور السيئة التي يمكن أن تصادفك خارج هذا المنزل، بل إنني أؤمن حقيقة بأنك ستكونين كذلك، وبأنك ستفعلين كل ما هو صائب في حياتك، مهما كانت الضغوط التي يمكن أن يمارسها الناس عليك".

لم يزل القلق بادياً على الفتاة. عانقتها بحرارة، وانتهى الأمر في تلك اللحظة. لم نتحدث عنه مجدداً. أعتقد أن ما قلته قد أثر فيها، ولكنني لن أتساهل، أو أسمح بأي قدر من المخاطرة في تلك المسألة. يكذب الأولاد على والديهم فيما يتعلق بالمخدرات (أعرف ذلك، وقد فعلته)، وعليه أعتقد أنني سأقوم بتفقد غرفتها، من حين لآخر، بالرغم من مشاعري المتضاربة حيال القيام بذلك.

غيل

سألني ولدي نيل، ذو الخامس عشر ربيعاً، إن كان بمقدور جولي، صديقة طفولته، المبيت في منزلنا يوم السبت، بالنظر إلى سفر والديها خارج المدينة لحضور أحد الأعراس، ومرض جدتها، التي كان من المفترض أن تجالسها، وعجزها عن القدوم.

فكرت قائلة لنفسي: "لم لا؟". سيمضي ولدي الأصغر عطلة نهاية الأسبوع في منزل والده، مما يسمح لجولي بشغل غرفته. تشاورت مع والدتها، بالطبع، لأقف على رأيها، وقد قبلت العرض بسعادة بالغة، وشعرت براحة كبيرة لوجود من يعتني بابنتها، في أثناء غيابها، من البالغين المسؤولين.

أرشدت جولي، حين وصلتْ، إلى الغرفة التي ستمضي ليلتها فيها. تناول ثلاثتنا، فيما بعد، عشاء شهياً، ثم شاهدنا بعض أشرطة الفيديو.

اتصلت والدة جولي، في الصباح التالي، لتعلمني بعودتها، ورغبتها في التحدث إلى ابنتها. صعدت إلى الأعلى لإحضارها. كان باب غرفتها نصف مفتوح، والسرير على حاله، ما قربه أحد!. بقيت الوسائد على ما تركتها عليه تماماً، حين رتبتها بالأمس. سمعت - بينما وقفت مشدوهة، فاغرة فمي - صوت ضحك صادر عن غرفة نيل.

قرعت باب غرفته بقوة، وصحت بصوت مرتفع قائلة إن والدة جولي تنتظر على الهاتف للتحدث معها.

خرجت جولي، حين فتح الباب أخيراً، بثيابها غير المرتبة، وشعرها المبعثر، والحرج باد عليها. تجنبتِ النظر في عيني، ونزلت بسرعة إلى الأسفل لتحادث أمها. عادت بسرعة لإحضار حقيبتها، ثم شكرتني على "كل شيء"، وغادرت.

استشطتُ غضباً، ما إن خرجت الفتاة من باب المنزل، قائلة لولدي: "نيل، كيف أمكن لك فعل هذا بي؟! وعدت والدة جولي بأن أكون مسؤولة عنها، وأؤمن سلامتها!".

أجابني قائلاً: "نعم أمي، ولكنها ...".

قاطعته قائلة: "لا تقل لي (ولكنها)، ما فعلته غير مبرر على الإطلاق".

عقب قائلاً: "ولكن شيئاً لم يحدث بيننا يا أمي".

عقبت قائلة: آه، صحيح. مراهقان يمضيان الليلة معاً على السرير ذاته، ولا يحدث شيء بينهما. هل تظنني حمقاء؟!. حسناً، سأخبرك عما لن يحدث الأسبوع المقبل. لن تذهب في رحلة التزلج مع صفك".

قلتها، وعنيتها، وشعرت بأن ذلك ما كان يستحقه تماماً. غادرت الغرفة فيما بعد كيلا أضطر إلى الاستماع إليه وهو يتحدث عن مدى لا عقلانيتي.

غيرت رأيي بعد مرور بضع دقائق، فكيف يمكن أن يساعد منع نيل من التوجه في تلك الرحلة على إدراك خطأه؟. ذهبت إلى غرفته، وخاطبته قائلة: "نيل، أصغ إلي: انس ما قلته عن رحلة التزلج. هاك ما أود قوله حقيقة: "اعلم أن الجنس أمر طبيعي، ويمثل جانباً صحياً من حياتنا، ولكن الوالدين يقلقون حين يتعلق الأمر بصغارهم، حيث يمكن أن تحبل بناتهم، ويصبح أولادهم آباء في سن مبكرة، ناهيك عن "الإيدز"، وغيره من الأمراض...".

لم يدعني أكمل. قاطعني قائلاً: "كفى يا أمي!. لست بحاجة إلى محاضرة تثقيفية عن الجنس. أعلم كل تلك الأمور، علاوة على أنني أحاول إخبارك منذ البداية أن شيئاً لم يحدث بيننا!. كنا مستلقيين على السرير، نشاهد التلفاز فحسب".

حسناً، ربما كانا كذلك حقيقة أو لم يكونا، ولكنني قررت إحسان الظن به. خاطبته قائلة: "نيل، أشعر بالسعادة لسماع ذلك بالنظر إلى أنك تحملت المسؤولية، حين دعوت جولي للمبيت عندنا، أمامها، وأمام أمها، وأمامي، ولا بد أن تضطلع بتلك المسؤولية على أكمل وجه".

لم ينبس ببنت شفة، ولكن تعابير وجهه أظهرت أن كلماتي قد أدت غرضها. كان ذلك كافياً بالنسبة لي، مما أنهى الحديث في حينه.

جيم

ظننت وزوجي أننا رتبنا الأوضاع بصورة جيدة حين جلبنا جهاز الكمبيوتر الجديد إلى منزلنا: وضعناه في غرفة المعيشة (بالرغم من اعتراضات طفلتنا نيكول، ذات الاثني عشر ربيعاً، التي ألحت بشدة على وضعه في غرفتها). زودناه بأحدث برامج الرقابة (سمعنا بوجود ما يقارب ثلاثة ملايين موقع من المواقع الإباحية التي يمكن للأولاد الدخول إليها عرضياً). وضعنا جدولاً مرناً لاستخدامه بحيث يلبي حاجات كل من أفراد العائلة. أوضحنا كذلك لنيكول أن استخدام الكمبيوتر محظور بعد التاسعة مساء،

وأنه محصور فيما يفيد الدراسة، والتحادث مع الأصدقاء عبر شبكة الإنترنت.

يبدو ذلك جيداً، أليس كذلك؟. حسناً، استيقظت، منذ بضعة أيام، بعيد منتصف الليل، ولاحظت مصباح غرفة المعيشة مضاء. توجهت إلى الغرفة كي أطفئه لأجد نيكول متسمرة أمام جهاز الكمبيوتر. لقد كانت مستغرقة فيما تقوم به بالكامل لدرجة أنها لم تلحظ وجودي. وقفت خلفها لأقرأ ما كان مكتوباً على الشاشة: "كورتني، تبدين جذابة، وظريفة، ومثيرة للغاية. متى أستطيع لقاءك؟". طبعتْ الفتاة، ما إن انتبهت إلى وجودي، الكلمة التالية على الشاشة: "أفر" (علمت فيما بعد أنها اختصار للعبارة التالية: "أبي فوق رأسي")، ثم محت كل ما كان مكتوباً عليها.

أخذ العرق البارد يتصبب مني، فقد سمعت الكثير من التقارير الإخبارية التي تتحدث عما يحصل حين تلتقي الفتيات الصغيرات الفتيان المراهقين، في غرف المحادثة، على شبكة الإنترنت: يمتدح الولد الفتاة، ويخبرها بوجود الكثير من الصفات المشتركة بينهما، ويشعرها بأنها مميزة بالنسبة له، ثم يستدرجها شيئاً فشيئاً إلى ملاقاته. يتضح فيما بعد أنه ليس ولداً جذاباً مراهقاً، بل رجلاً كبيراً، ومتحرشاً جنسياً لا يعلم إلا الله ما سيفعل بالفتاة.

خاطبتها قائلاً: "نيكول، ماذا تظنين بحق الله أنك فاعلة؟ هل توجد لديك أية فكرة عما تعرضين له نفسك من خطر؟ سأضطر إلى منعك من استخدام الكمبيوتر لأجل غير مسمى".

اتخذت على الفور موقف المدافع قائلة إنه لا يوجد ما يثير القلق، وإنها كانت تمرح قليلاً، وإنها لم تستخدم اسمها الحقيقي حتى، وإنها ذكية بما يسمح لها التمييز بين "السوي" و"المنحرف" من الأشخاص.

عقبتُ قائلاً: "نيكول، استمعي إلي: لا توجد أي طريقة للتمييز بينهما!. يمكن لأسوأ "المنحرفين" أن يبدو سوياً وجذاباً للغاية. إنهم يعلمون تماماً كيف يخدعون الفتيات الصغيرات، ويتدربون على ذلك باستمرار". طلبت منها فيما بعد أن تعطيني كلمة السر خاصتها لأنني سأقوم مع أمها، منذ تلك اللحظة فصاعداً، بالتفحص الدوري لما تدخل إليه من مواقع على الإنترنت.

ما كان رد فعلها على ذلك؟ إنني لا أثق بها... وأفعل ذلك دون وجه حق... وأحرمها من خصوصيتها... إلخ، ولكنها تراجعت - حين أخبرتها بعضاً من القصص المرعبة التي سمعتُها عن أولئك الأشخاص "الأسوياء" الذين يتحولون في نهاية المطاف إلى متربصين، وخاطفين، ومغتصبين، وما هو أسوأ من ذلك - ولم تستطع التعقيب إلا بصوت ضعيف خافت، قائلة: "حسناً، لا يمكنك تصديق كل ما تسمع".

أظن أنها كانت تحاول حفظ ماء وجهها، ولكنني أعتقد أن جزءاً منها شعر براحة حقيقية؛ لأن والدها يهتم لأمرها، ولأنه ليس بإمعة يسهل التلاعب به.

تذكرة

بدائل عن المعاقبة

المراهق: أقسمتَ أن تقلع عن التدخين، وها أنت ذا تستمر به!. يا لك من مدع!.

الوالد: ستعاقب أيها الثرثار طيلة هذا الأسبوع!.

عوضا عن القيام بذلك:

أوضح مشاعرك:

"يشعرني هذا الكلام بالغضب".

أوضح توقعاتك:

"يتمثل ما أتوقعه من ولدي، حين أحاول الإقلاع عن التدخين، في تقديم الدعم لا مهاجمتي".

وفر الخيارات:

"تجرحني إساءتك لي. يمكنك التحدث إلي عما تظن أنه يساعدني في الإقلاع عن التدخين، أو كتابته على ورقة".

أوضح كيفية التعويض:

"من الجيد أن تعتذر إلى أحدهم حين تدرك أنك أسأت إليه".

ولكن مـاذا لو واصل المراهق التـحـدث بطريقـة تخلو من الاحترام؟

اتخذ الإجراءات (بينما تغادر الغرفة):

"انتـهى النقـاش. لا يمكنني البـقـاء كـيـلا أتعـرض لمزيد من الإهانات".